جوانب من الحياة اليومية في سيرتا في القرن الثالث قبل الميلاد

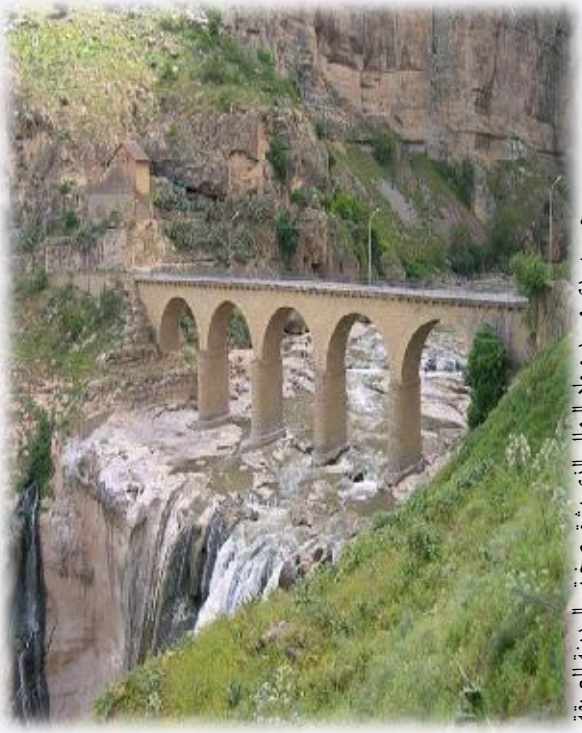

جسر سيدي مسيد و واد الرمال الذي يشق صخري المدينة العريقة

صافية سهلي
ليسانس تاريخ تخصص تاريخ قديم
جامعة قسنطينة – الجمهورية الجزائرية
numedia_08@yahoo.fr

■ **الاستشهاد المرجعي بالمقال:**
صافية سهلي ، جوانب من الحياة اليومية في سيرتا في القرن الثالث قبل الميلاد.-دورية كان التاريخية.-العدد الخامس ؛ سبتمبر٢٠٠٩. ص ٥٢ -٥٣.
(www.historicalkan.co.nr)

تشهدت مدينة قسنطينة (شرق الجزائر) مع نهاية القرن التاسع عشر الميلادي سلسلة من الأبحاث الأثرية كشفت عن عدد كبير من النصب البونية ، حيث أثبتت الدراسات مدى أهمية المدينة التي حملت أسم "سيرتا" تزامنا مع ازدهار قرطاج و بلوغها ذروتها ، و قد أجمع معظم المؤرخون والأثريون استناداً إلى المعطيات التاريخية أنّ وجودها لا يتجاوز القرن الثالث قبل الميلاد. فإذا تساءلنا عن الحياة السيرتية في هذه الفترة ، فإلى أي مدى تمكننا اللقى الأثرية من استخلاص نمطها وأساسياتها ؟

إن النقوش التي عثر عليها من خلال النصب البونية المكتشفة في المدينة تدلنا على النظام الإداري والاجتماعي والعقائدي[١] الذي لا يختلف عنه في قرطاج ، إذ يؤكد أندريه برتييه أن العادات الجنائزية ومختلف الطقوس الدينية كانت نفسها في سيرتا [٢] ، ولعلّ هذا التشابه أو التطابق جعل فريق من المؤرخين يؤكدون أنها لم تكن سوى مستعمرة فينيقية وامتداداً للقوة القرطاجية.

يعد معبد الحفرة من أهم وأقدم النصب الوارد ذكرها ، وقد صنف أندريه برتييه ، ورينيه شارلييه النقوش الثلاث مئة إلى بونيقية (punique) وبونيقية جديدة (néo-punique) ، أما فيما يخص تاريخ بناء المعبد فيفترض أن يكون حوالي منتصف القرن الثاني قبل الميلاد ، فإذا كان أقدم نص في المعبد (pun 56) يعود إلى ١٦٢ ق.م هذا لا يعني أنه تاريخ وضع الأسس الأولى لمعبد الحفرة [٣] لكنه استنتاج توصل إليه برتييه وزميله من خلال معادلة نسبية غير فاصلة في هذا الموضوع.

إذا أخذنا بعين الاعتبار البعد البونيقي في البناء الإجتماعي لسيرتا وهذا ما أشارت إليه معظم المصادر الأثرية ، فإن الحياة الدينية أخلصت للعقيدة الفينيقية بما فيها من طقوس وعادات قديمة مجتمعة في تقرب روحي للإله بعل أمون في كل زاوية من المدن النوميدية من بينها سيرتا[٤] .

وإذا عدنا إلى نصوص الحفرة ، فقد أثبتت النقوش٢٧ الأولى رأي غابريال كامبس فيما يخص عبادة الإله بعل أمون ، إضافة إلى ذكر الإلهة تانيت في النقش(pun 2)[٥] ، وكانت الدلائل على استتباب الديانة الفينيقية في سيرتا كثيرة لاسيما تلك النقوش التي وجدت على صخر منحدر المنظر الجميل والكدية إذ ارتبط فيها اسم بعل أمون بتانيت ، كما كشف النقش (68pun) عن وجود مذبح للإله ملقرت[٦] .

تجدر بنا الإشارة إلى ؛ بعض الغموض الذي يتخلل طقسا من الطقوس الممارسة في سيرتا وهو الذي يخص قرابين الأطفال ، إذ يعتقد برتييه أنه يمكن أن تكون حقيقية أو رمزية ، و ممّا لا شك فيه هو أن هذه الطقوس وأخرى هي ذاتها في اللقى الأثرية القرطاجية ، لكن البربر لم يفضلوا هذا النوع من الأضاحي ولا العادات الجنائزية التي يتم خلالها حرق الجثث[٧] .

أحكم تنظيم مدينة سيرتا إدارياً وعسكرياً ومدنياً إلى حد التكامل المطلق بين القادة العسكريون والإداريون المقتدرون (scribes) ، يخضعون لسلطة عليا على رأسها شفطين (قاضيين) ينتخبان كل سنة [٨] ، وتم استنتاج ذلك من خلال ترجمة برتييه وشارلييه لعبارة تعني (deux suffètes)[٩] .

وبحكم الحقبة التاريخية التي نحن بصدد دراستها ، تستوقفنا بعض التفاصيل في أهم جانب من جوانب الحياة آنذاك خاصة إذا صادفتنا في بعض المصادر التاريخية كلمة "Mishtar" و تعني القائد العسكري ، كما لم تخلو النصب البونية في سيرتا من إهداءات للآلهة ومناجاتها للنصر في المعارك ، فكان معظم هؤلاء القادة يحملون أسماء بونية: أريس(Aris) ، أريسام (Arisam) ، بدملقرت (Bodmalqart) ، حملقو (Hamilco)[١٠].

وقد كشف النص (pun 74) من نصوص الحفرة عن استخدام الأسلحة البونية في سيرتا[١١]: الرمح ، الترس البيضوي الشكل ، الخوذة المدببة ، القوس وخاصة السيف القصير ، وفي هذا الوصف يؤكد كامبس أنه لم يصادف عدّة القتال هذه لا في النصب القرطاجية ولا حتى في الشرق ، و إنما تشبه إلى حد كبير عدّة النوميد أو المور[١٢] . وهذا ضرورة حتمية لأخذ بعين الاعتبار البعد البربري في الكرونولوجيا الفينيقية.

على الرغم من تبجيل المجتمع السيرتي لحياته العسكرية والدينية ، لم يمنع نفسه من تطوير حياته الاقتصادية التي لم تخلو من مختلف أنواع الحرف والأنشطة البسيطة والمعقدة ، فماغون (Magon) ابن أدنبعل كان زعيما للتجار ، و عدربعل (Aderbaal) ابن عبد ملقرت قصابا ، وعبد ملقرت ابن أدونيبعل (Adonibaal) بناءاً ، و لم تكن التجارة صعبة على كل من بعل ياتون (Baalyaton) وعبد ملقرت (Abdmalkart) و غيرهم [١٣].

منظر جوي لوسط مدينة قسنطينة

لم تخلو اللقى الأثرية من الحلي المصنوعة من مختلف أنواع المعادن ، الزجاج الملون ، العملات البرونزية و الجرار(amhores) التي اختلفت الآراء حول محليتها ، فيفترض M.Cintas أن أغلب الجرار التي عثر عليها بالقرب من منطقة الخروب رودسية (من جزيرة رودس) [١٤] ، لأن رودس مثلت بين القرنين ٣ و٢ ق.م عاصمة اقتصاد العالم القديم و اشتهرت بصناعة الجرار ذات القبضتين لحفظ النبيذ وكانت تصدرها إلى مختلف المقاطعات من بينها سيرتا [١٥].

وقد مكنتنا المصادر الأثرية إلى حد ما معرفة بعض المظاهر الحياتية لمدينة سيرتا أو كرتن منذ القرن الثالث قبل الميلاد ، حتى وإن كانت المقاطعة امتداداً اقتصادياً ، أو إدارياً لقرطاج ، فإن التاريخ لا يمكنه تجاهل مجتمع محكم التنظيم ، صنع مجداً و أرخ له في كل حرف بوني نقش على صخر.

الهوامش:

(1) André BERTHIER : La Numidie (Rome et le Maghreb) Paris 1981 , p 167

(2) A.BERTHIER : ibid. , p 176

(3) André BERTHIER et L'Abbé René CHARLIER : Le sanctuaire punique d'El Hofra à Constantine (Textes) , Paris 1955 , p 231

(4) G.CAMPS : aux origines de la Berberie , Massinissa ou les debuts de l'histoire . Alger 1961 , pp 259 ,260.

(5) A.BERTHIER et L CHARLIER : op-cit , pp 12,13.

(6) " " : ibid. , p236.

(7) A.BERTHIER : La Numidie , p 168

(8) A.BERTHIER : ibid , p 176

(9) A.B et L.CH : Le sanctuaire punique d'El Hofra , p 23

(10) A.BERTHIER : La Numidie ,p 168

(11) A.B : ibid. , p 171

(12) G.CAMPS : Massinissa ou les débuts de l'histoire , p 263

(13) A.BERTHIER : La Numidie , p168

(14) A.B et L CH : op-cit ,pp 231/232

(15) STEPHANE GSELL : Histoire ancienne de l'Afrique du nord .Tome IV . paris 1920 , pp 153 - 154.